الرقم الدولي المعياري للمؤتمر (معتمد ومصنف دوليًا) ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية

حظوة السيرة النبوية في المنظومات العربية

ديوان " لآلئ البيان في سيرة نبيّ الرحمة ﷺ " مثالاً

للشاعر : (ابن المــُعَنّى) مصطفى بن محمود السماعيل رحمه الله

بحدث مقدّم للمشاركة في المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية المنعقد في دبي

مقدّمه : د . محمد بن مصطفى محمود السماعيل

مقدمة :

الحمد لله كما يحب أن يُحمد ، والصلاة والسلام على رسوله و مصطفاه مِن خلقه ، وبعد :

كلمة (حَظوة) تعني أو ترادِف معنى المكانة ، فهي تشير إلى المكانة مجرّدة مِن علوّها و بروزها أو العكس ، أي : دنوّها وانخفاضها ، فليس ضرورة أنْ يشير معنى الحظوة إلى مكانة عالية يتبوّأها ذلك المحكيُّ عنه ، وإني إذ أردتُ إظهارَ الحظوة التي تتبوّأها السيرة النبوية في الشعر العربي ، فإنّما أردتُ المعنَيَيْن ، ولكلّ معنى تفصيل .

1ـ فمعنى قلّة تلك الحظوة عند الشعراء هو راجعٌ إلى حديثنا عن نظمهم للسيرة النبوية الكاملة ، المفتَـتَحة بولادة النبيّ ﷺ ، المختتمة بوفاته ، وهو المقصود هنا و نطاق هذه الدراسة .

2 ـ أمّا معنى علوّ تلك الحظوة و رفعتها فراجع إلى :

أ ـ الحديث عن نظم الشعراء ــ الذي قد لا يصل إلى حدّ الكثرة بمفهومها الثرّ ــ في جوانب محدّدة وأحداث ومراحل متفرقة وقصص مختلفة مِن السيرة النبوية .

ب ـ أو إلى الحديث عن المديح النبويّ الذي يختصّ بشخص النبيّ ﷺ ، وصفاتِه وشمائِله وأخلاقِه و رفعة شأنه وعلوّ شرفه ، وهذا أكثر وأوسع مِن أن يُحصر أو يُحصى ، فقصائد المديح مِن هذا القبيل لا يمكن حصرُها ، إنِ القديمة منها أو الحديثة .

وهذا البحث يُعنى بدراسة ما نُظم في السيرة النبوية كاملة ، و ذكرِ أسماءِ الشعراء الذين بلغوا هذا الشرف وأزمنتِهم ، والاجتهادِ في معرفة أسبابِ الندرة في منظومات كـامل السيرة ، وثمرةِ هذه المنظومات وفائدتِها في معرفة وحفظِ الســيرة النبـويـّـة ، والتحليلِ والمقارنةِ بين طبيعة هذه المنظومات مِن حيث جوانبُ عدة ، منها : المقارنة العروضية ، ومقارنة المادة العلمية والتاريخية المذكورة .

ولقد جعلت ديوان (لآلئ البيان في سيرة نبي الرحمة ﷺ) لصاحبه الوالد ، الشاعر المرحوم : مصطفى بن محمود السماعيل (ابن المـُعنّى) ، الذي يتضمّن السيرة النبوية الكاملة منذ ولادة النبيّ ﷺ وحتى وفاته منظومة في أربعةٍ وستمائة بيت مِن البحر

الكامل متسلسلة تسلسلاً زمنياً ، مقسّمة حسب الأحداث والقصص والوقائع ، ولكلّ عنوان أبيات تسرد تلك الوقائع والأحداث مستقلّة عن سابقتها قافية و روياً ، فقد توافق سابقتها وقد تخالفها في ذلك ، أعني : القافية والروي ، أما البحر فكان موحّداً في كامل المنظومة ، فكانت مِن البحر الكامل ، إشارة إلى الكمال البشري الذي اختصّ به الله ﷻ نبيَّه كما ذكر ذلك الشاعر رحمه الله في مقدمته .

وتجدر الإشارة إلى أنّ إطلاق قولنا :" كامل السيرة النبوية " لا يراد به ــ كما هو مفهوم بداهة ــ حياة النبيّ ﷺ كاملة بكلّ تفاصيلها وجزئياتها ، فهذا مِن المستحيل الذي لا يمكن لبشرٍ بلوغه ، لا في سيرة النبيّ ﷺ ولا في سيرة غيره ، وإنما يُقصد أبرزُ الأحداث التي نقلها إلينا أصحابُ السير ابتداءً مِن الولادة وانتهاءً بالانتقال إلى الرفيق الأعلى ، ولا شكّ انّ كلَّ مَن نظم السيرة أو بعضاً منها إنما اعتمد على كتابٍ أو كتبٍ مِن كتب السيرة ، سواء الأمّهات منها أو الممنقولة عنهم مِن المؤلفات الحديثة ، فلقد اعتمد شاعرنا في لآلئ البيان على كتاب (فقه السيرة النبوية) لمؤلفه : الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي " رحمه الله " .

أهداف البحث :

1- التعريف بناتج مستوى التكوينة البلاغية والجمالية عندما يجتمع جمال الشّعر ومتعة إيقاعه و حُسن نسجه و دقّة وزنه وغير ذلك مِن مظاهر رفعة شأنه ، مع شرف الحضرة النبوية والسيرة الزكية بما حوته مِن تغيير ٍبسُنن الكون الدينية والأخلاقية .

2 ـ تسليط الضوء على الديوان ، بغية أنْ يكون مرجعاً شعرياً ومتناً لحفظ أحداث علم السيرة النبوية .

أهمية البحث :

تُستنبط أهميته مِن قيمته المتمثلة في كونه أحد الأعمال الشعريّة القليلة المنظومة في كامل السيرة النبوية ، والتي نظمت لتكون متوناً يُستعان بها لحفظ السيرة النبوية .

كما تُعلَم وتتجلّى أهميته في ارتباطه بالنبيّ ﷺ وسيرته الطيبة .

منهج البحث :

منهج الاستقراء الذي يحاول استقراء وحصر مَن تناولوا كامل السيرة النبوية نظماً ، والمنهج التحليلي والمقارن ، الذي سيفكّك بعض الأفكار المتعلقة في منظوم السيرة النبوية ويقارن بين منظوم اللآلئ وغيره مِن المنظومات التي وردتنا .

الله أسأل أنْ يوفقني لإشباع هذا الموضوع دراسة وتحليلاً بأوجز العبارات وأثراها فائدة ، وأنْ يكتب القبول والتيسير .

تمهيد

مِن أجلّ وأهمّ العلوم علمُ السيرة النبوية الشريفة ، وما استمَدّ هذا العلم أهميتَه وجلالته الحقيقية مِن كونه دراسة تاريخية تتناول فترة زمنية خَلتْ ، وإنما مِن جلال وقَدر صاحبها ﷺ ، كما أنّ العلم بمنظوم العرب وأشعارهم علمٌ بديوان العرب وبأصلٍ مِن أصول الفصاحة والبلاغة والأدب ، فتدوين السيرة النبوية ــ شِعراً ــ بما فيها مِن تعريفٍ بالنبيّ ﷺ وحياتِه ، بكلّ أحداثها ومحطّاتها المفتتَحة بالولادة والمنتهية بالوفاة لهو اصطفاءٌ وتوفيقٌ إلهيٌّ يجمع لصاحبه شرف العِلمَين .

ولقد سلف الذكر في المقدمة أنّ المراد مِن كلمة "حظوة" في هذه الدراسة معنى الحظوة الدنيا ، أيْ: القلّة لا الكثرة ، فما حظيت السيرة النبوية كاملة ــ حسب علمي ــ بالنظم كما حظيت بعضُ العلوم العربية الأخرى ، وقد لا يتّسع البحث للتفصيل في أسماء المنظومات وأصحابها في بعض العلوم التي أخذت نصيباً وافراً أو كافياً مِن النظم الشعريّ ، ولكن أسوق مثالاً : فعندما نتحدث مثلاً عن علم البلاغة بأقسامه ، فكم يسري إلى الذهن مِن المنظومات ؟! ولعلّ تلك البديعيات أوّل ما نذكر مِن ذلك ، وهي القصائد المنظومة في علم فنون علم البديع ، وقد كثرتْ ، إلا أنّ الشهرة كانت لأربعة قصائد منها ، وهي : بديعية

الكفاية لصفي الدين الحلّي 750ه ، وبديعية العميان لابن جابر الأندلسي 780ه ، وبديعية عز الدين الموصلّي 789ه ، وبديعية ابن حجّة الحموي 837ه، ولو أردنا الاسترسال والزيادة فإننا نذكر مثلاً بديعية عبد النور الزواوي المصري 628ه ، وبديعية أحمد بن محمد الخلوف 899ه ، وبديعية الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي 911ه ، و بديعيّة عائشة بنت يوسف الباعونية 922ه، ومِن منظومات البلاغة أيضاً نظم الجوهر المكنون في علوم البلاغة ، لعبد الرحمن الأخضري 983ه ، وغيرها مما لم نذكر أو نعلم .

وتجنّباً للإسهابِ وصرفِ الموضوع عمّا أريدَ في هذا البحث فلن أذكر ما نُظم في علم النحو والعقيدة والفقه وأصولِه ونحوها مِن العلوم ، وأكتفي بالقول : إنّها كُلّها استوفتْ نصيباً مِن النظم لم يبلغه نظم كامل السيرة النبويّة .

أما السيرة النبويّة الشريفة ، وقبل عدّها بركةَ العلوم ، والنموذجَ الحياتيّ لخير مَن خلق الله ﷻ ، وهو نبيّ الرحمة محمد ﷺ ، والسلوكَ الذي ندين ونؤمن بأنه المثلُ الأسمى للإنسان ، فهي عِلمٌ قمنٌ بالدراسة ، وتاريخٌ وصلنا مِن ثلاثة مصادر ، الأول : القرآن الكريم ، بما فيه مِن ذكرٍ لأوصافٍ وأحداثٍ نبويّة ، الثاني : الحديث الشريف ، الثالث : كتب السيرة .

وعِلمٌ وصلنا مِن أصدق المصادر حقيقٌ أنْ تكون له الحظوة الأعلى والأهمية الأعظم مِن أيّ علمٍ آخر ، مِن حيث نظمُه شعراً ، أخذاً واستمداداً مِن تلك المصادر الثلاثة ، لأنّ كثرة نظم أيّ علمٍ مِن العلوم دليل الاهتمام به ، كما لا يخفى دور النظم في تثبيت حفظ ذلك العلم ، إذ إنّ النظم يوجز المطوَّل ويختصر الأفكار ، ويُسهّل حفظ العلم ، ويرغّب فيه لما له مِن إيقاعٍ مستطابٍ لدى النفس وقافيةٍ محبَّبةٍ لها .

غير أنّ واقع الأمر على عكس ما رجونا ، فالباحث عما نُظم في علم السيرة النبوية كالباحث عن النزْر مِن النفيس ، واللِمام مِن الدُرّ .

لهذا سأبدأ الدراسة بمحاولة حصرٍ سريعة للمنظومات التي تناولت السيرة النبوية كاملة .

الدراسة

مِن خلال الاطلاع وتتبّع ما نظم في كامل السيرة النبوية توصلت إلى أنّ منظومات السيرة النبوية الكاملة لم تتجاوز اليسيرَ مِن العدد ، فمنها النظمُ القديمُ ومنها الحديثُ ، ولقد ظهر أنّ الجهدَ الشعري الحديث في نظم السيرة أوفرُ مِن القديم ، فما علمتُ مِن القديم إلا ثلاثَ منظومات ، اثنتين منها مطوّلة تستعرض أحداث السيرة كاملة ، وهو المراد مِن الدراسة ، والثالثة مختصرة تسرد الموضوعات سرداً مختصراً لا يرتقي إلى ما نحن بصدد الحديث عنه .

فالنظم الأول هو : " الفتح القريب في سيرة الحبيب ﷺ " وهي منظومة مطوّلة جداً ، ولم يُتّفق على عدد أبياتها ، فقيل : إنها مِن بضعة عشر ألف بيت وقيل : بلغت خمسة وعشرين ألف بيت ، وأكثر الظنّ أنها ما زالت مخطوطة دون تحقيق ، وكاتبها هو : فتح الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن محمد القاضي الشافعي النابلسي الدمشقي ، المعروف بابن الشهيد (ت793ه)

أما النظم الثاني فهو "نظم الدرر السَنيّة في السيرة الزكية " ، وهي ألفيّة نظمتْ في القرن الثامن الهجري ، نظمها الإمام : زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي 806ه ، وهي رجزية (من بحر الرجز) استوفتْ ما وصلَنا مِن أخبار السيرة النبوية وأحداثها ، وقد نالت عناية العلماء مِن الشرح والتحشية ، فقد علمتُ ثلاثة عشر شرحاً واعتناءً بها /يُرجع إلى النسخة التي حققها السيد محمد بن علوي المالكي الحسني 1425ه الصادرة عن دار المنهاج ط1 ،2005م ، ص 11/ ، ولعلّ اعتناء أهل العلم بهذه المنظومة جاء مِن شموليّتها ،

فقد بُدئت بصفات النبيِّ ﷺ ، فنسبِه الشريف الذي يذكره الناظم مسلسَلاً إلى آدم عليه السلام ، ثم مولده و إرضاعه ، وهكذا حتى وفاته ﷺ .

وأما النظم الثالث المختصر فهو " الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية ﷺ " ، وهي أرجوزة مِن مائة بيت ، للعلامة ابن أبي العزّ الحنفي (ت792ه) ، وتُعتبَر مِن المختصرات .

أمّا المنظومات الحديثة في نظم السيرة فقليلة أيضاً ، غير أنها أكثر مِن القديم ، منها :

1ـ ألفيّة " نيل السول مِن تاريخ الأمم وسيرة الرسول ﷺ " للعلامة : حافظ الحكمي (ت1958م) مِن علماء وشعراء الحجاز ، لم يكتفِ المؤلف في هذه الأرجوزة بسرد السيرة ، وإنما ذكر قبلها موضوعاتٍ عدّة ، ابتداءً مِن بدء الخلق ، كخلق القلم والسموات والأرض والملائكة والجنّ ، وخلقِ آدم عليه السلام، وذكر قصص الأنبياء ، ثم أحوال أهل الجاهلية ، وبعدها انتقل إلى السيرة ، فبدأ بذكر النسب الشريف إلى أنْ وصل إلى ذكر وفاته ﷺ ، وهي مِن سبعين وتسعمائة بيت مِن بحر الرجز .

2 ـ " تائية الخطيب في سيرة المصطفى الحبيب " منظومة مِن ثلاثمائة وألفَي بيت شعريّ مِن البحر الكامل ، للسيد عبد الحميد الخطيب (ت1961م) هو دبلوماسي وعالم دين وكان خطيباً للمسجد الحرام في مكة .

3 ـ وأيضاً "منظومة سيرة خير البشر" وهي نصف ألفية ، نظمها عبد الإله هوساوي .

4 ـ وكذلك "منظومة مسرح الأفكار بسيرة النبي المختار" لصاحبها ماء العينين بن العتيق ، وهي أرجوزة مِن اثنين وسبعين ومائتي بيت ، ابتدأها بالنسب الشريف ثم تلاه بالولادة ، وهكذا إلى الوفاة ، وأتبعها بذكرٍ للخلفاء الراشدين .

هذا ما عرفته مِن منظومات السيرة النبوية الكاملة ، ويضاف إليها منظومة " لآلئ البيان في سيرة نبيّ الرحمة ﷺ " لصاحبها الوالد : مصطفى بن محمود السماعيل رحمه الله .

منظومة لآلئ البيان :

أبياتها أربعة وستمائة بيت مِن البحر الكامل ، سرد فيها الشاعر السيرة النبوية الكاملة حسب ما وردنا منها في كتب السيرة ، بدءً بمولده الشريف وانتهاء بالوفاة ، اعتمد الشاعر في نظمها على كتاب " فقه السيرة النبوية " للدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ، وقد وافق عددُ أبياتها عددَ صفحات القرآن الكريم حسب النسخة الأكثر تداولاً ، صدفةً دون قصدٍ منه ، فلم ينتبه لذلك إلا بعد إتمامها ، وكما ذُكر آنفاً هي مِن البحر الكامل إشارة إلى كمال خُلُق صاحبها ﷺ ، كما ذكر ذلك الشاعرُ في المقدّمة ، وقد اتحد البحر في كامل المنظومة إلا أنّ الرويَ والقافية تعدّدت فيها ، تنشيطاً للقارئ وتجنّباً للملل ونظراً لطول المنظومة وتعدّد وتقسيم فصولها .

الشاعر :

أما الشاعر فهو مِن سوريا ، ولد 1946م ، وألقى عصاه مِن رحلة هذه الحياة سنة 2022م ، الموافق 30 شعبان من عام 1443ه ، نظم الكثير مِن الشعر وفي شتى الموضوعات ، وقد جُمع كلّ ما قال في ديوان صدر حديثاً باسم (الديوان المجموع) ، إلا أنّ نظم السيرة كان تاج أعماله ودُرّة شِعره ، ولم يكن نظم السيرة كافياً لإشباع روحِه حُبّاً وتعلّقاً بالنبيّ ﷺ وشمائله وأخلاقه ، فله دونَها العديدُ مِن القصائد النبويّة السامية ، وأما ذائقته الأدبية وقريحته الشعرية فنشأت بنشأته و ربَتْ مع أنفاسه ، حيث نشأ في بيت أدب وشعر، فقد أخذ المعاني عن الأبِ والجدِّ الذي عُرف بـ(المـــُـــعَـنّى) ، غير أنّ سابقَيه كانا

يقولان شعر اللغة المحكيّة ، والذي تتّحد فيه القوافي ، ويُنظَم بتناسقٍ في الألفاظ والمقاطع ، لكن لا يخضع للبحور الشعرية العربية ، ولا للفظ الفصيح ، فعاش الحفيد البيئة الشعرية في العائلة ، وارتقى بالمعاني المخزونة في فؤاده إلى الشعر المقفّى الفصيح ، نظراً لثقافته و دراسته الأكاديمية في المدارس والجامعة ، خلافاً لأبيه وجدّه اللذين لم يتسنّ لهما في عهدهما ذلك .

أسباب ندرة نظم السيرة :

قبل دراسة وتحليل " لآلئ البيان " ، لا غنىً عن التعرّض لظاهرة الندرة في استيعاب كامل السيرة النبوية نظماً ، كغيرها مِن العلوم .

ويجدر القول هنا : أنّه لا يمكن القطع بالأسباب التي ستذكر لاحقاً ، حيث لم يتعرّض لها أحدٌ مِن قبل، وإنما الأمر هنا استنتاج وتحليل واجتهاد ، فأقول : إنّ مرجع ذلك إلى عدة أسباب ، وكلّها لا تتعدى دائرة الظنّ والاجتهاد ، منها :

1ـ احتياج هذا المشروع العلميّ ــ نظم كامل السيرة ــ إلى همّةٌ عالية تفوق الهمّة في نظم باقي العلوم، وذلك لسعةِ أحداثها وموضوعاتها وامتداد زمنها ، وهو العمُر الذي عاشه النبيّ ﷺ .

2 ـ ربما اعتبر العلماء والشعراء السيرةَ عِلماً له فضلُ قدسية عن غيره ولا بد مِن نقله بحذافيره وجميع ما وردنا منه ، وبالتالي إسقاط أيّ موضوع منه هو إسقاط للأمانة وتقصير في تبليغها ، فكان النظم فيها له في نفوسهم شيءٌ مِن الرهبة والهيبة .

3 ــ أنّ علم السيرة سهلُ الحفظ ، فهو علمٌ قصصيٌّ في عمومه ، وليس قواعدَ محدّدة تضبط المسائل كما العلوم الأخرى ، فالنحو مثلاً والبلاغة والفقه وأصوله ومصطلح الحديث وغيرها ، معرفتها بمعرفة قواعدها ، وتقديم تلك القواعد متوناً منظومة يسهّل حفظها وتذكّرها ، لما للنظم المقفّى مِن وقعٍ لطيفٍ

وممتع على النفس ، ولما فيه مِن إيجاز ، أما السيرة فليست قواعد تحتاج إلى تبسيطٍ وتسهيل .

4 ـ بقية العلوم كما سبق الذكر يمكن اختصار قواعدها والاكتفاء بالإشارة إليها في النظم ، ليكون البيت الشعريّ مفتاحاً لتذكّرها ، أما السيرة فلا ينطبق عليها ذلك ، حيث هي أحداثٌ مِن الصعب إيضاحها مختصرة ، كما أنّ في السيرة أسماء أماكن وأعلام لا تُختصر أيضاً ، فالسيرة أحداثٌ مكوّناتها أشخاصٌ ، النبيّ ﷺ ، وأصحابه ، وأعداؤه ، وهذا يحتاج إلى التوسّع في ذكرهم جميعاً ، لذلك لا غرو أنْ تكون منظومة فتح القريب مكونة مِن خمسة وعشرين ألف بيت ، والدرر السنية مِن ألف ، واللآلئ التي بين أيدينا مِن أكثر مِن ستمائة بيت ، ومِن هنا كان الأصل أنْ يصدر ديوان " لآلئ البيان " كبقيّة الدواوين الشعرية ، مِن حيث الاكتفاء بالمنظوم وإخراجه كديوان شعري مجرّدٍ مِن أيّ نثر إلا ربما مِن شرح مختصر وتعليق في الحاشية على بعض ما غاب مِن المعاني ، ولكن ـ بسبب سعة أحداث السيرة وعدم مناسبتها للإيجاز ـ لم أجد مهرباً مِن التقديم لكلّ فصل شعريٍّ مِن المنظومة بسطورٍ منثورة توضّح المنظوم .

5 ـ كلّ العلوم يكفي في نظمها معرفتُها و دراستُها ، أما السيرة فيضاف فيها ضرورةُ الرابطة الروحية وفيضُ التعلّق والمحبةِ الواصلةِ بين الشاعر وصاحب السيرة ﷺ ، لأنّ الشعر مشاعر متدفّقة قبل أنْ يكون مهارة وموهبة .

بين لآلئ البيان وباقي المنظومات :

عندما نتخذ نموذجاً ما مثالاً على مسألة أو علمٍ ما ، فهذا لا يعني أفضليّته أو تفضيلَه، وإنما ينطوي هذا تحت مسمى المقارنة العلمية وعلم النقد ، وهذا لا يعني المساواة في الدراسة بين النماذج وتناولها كلها في الدراسة على مستوى واحد ، فلا شكّ أنّ اختياري هنا لديوان "لآلئ البيان" مثالاً على منظومات السيرة

تخصيصٌ له بمزيدٍ مِن الدراسة وتسليط الضوء ، وستكون المقارنة هنا في بنودٍ مرقمة .

1 ـ البحر : نسجَ الشاعر منظومته على البحر الكامل ، وهو بحرٌ عروضي تُنظم عليه القصائد الشعرية على اختلاف موضوعاتها ، فاعتبر الشاعر أنّ السيرة النبوية جديرة بأنْ تُنظم على بحرٍ معتبَر ولو كلّف هذا وقتاً أطول ، وهذا يشير إلى أنه لم ينوِ في نظمه لها أنْ تكون متوناً مسهِّلاً لحفظ مادة السيرة النبويّة ، وإنما نظماً يحتلّ مكانةً رفيعة بين المنظومات ، فلم يركن رحمه الله إلى بحر الرجز الذي يعتمدهُ ــ لسهولة نظمه وحفظ منظومه ــ أصحابُ المتون في منظوماتهم لتسهيل حفظ العلم المنظوم فيه للطلاب ، وأيضاً تسهيلاً على أنفسهم ، حيث لا يخفى أنّ الرجز أسهلُ بحر يمكن اعتماده في النظم ، وهو بحرٌ اعتمده العرب في الحداء للإبل ، وفي كلّ نظم سريع لا يحتاج كثيرَ جُهد ، وهذا ما فعله أصحاب المنظومات في السيرة النبوية الذين سبق ذكرهم ، فكانت كلّ منظوماتهم على بحر الرجز باستثناء "تائية الخطيب" فقد نسجت على البحر الكامل كاللآلئ ، فالأرجوزات عادةً لا تُؤخذ إلا متوناً للتعليم ، أما ما يُنظم في العلوم على غير الرجز مِن البحور كالكامل والوافر والبسيط وغيرها ، فإنْ شئتَ جعلته متوناً لذلك العلم وإنْ شئتَ جعلته في مصافّ الذروة مِن الشعر ، فالبحر الكامل هنا يرتقي بالمنظومة صنعةً ونظماً .

2 ـ الروي والقافية : خروج الشاعر في لآلئه عن المألوف مِن بحر الرجز في النظم يقتضي الخروج عن المألوف في الروي والقافية أيضاً ، فالأرجوزة تقتضي عادةً إفراد كلّ بيت منها بروي جديد وبقافيةٍ مختلفة عن الأخرى ، فلا اتحاد للقوافي في الأراجيز ، وإنما يتبع روي البيت وقافيتُه الحرفَ الأخير مِن الشطر الأول مِن البيت ، أما في غير الرجز مِن البحور فالأصل اتحاد قوافي الأبيات كاملة ، وكما أنّ بحر الرجز بذاته سهل للنظم فكذلك عدم التقيّد باتحاد

قوافي الأبيات عاملٌ آخر مِن عوامل سهولة النظم ، فمثلاً يستهلّ الإمام زين الدين العراقي منظومته "الدرر السنـيّة" بقوله :

يقول راجي مَن إليه المهربُ عبد الرحيم بن الحسين المذنبُ

أحمـــــد ربي بأتـــــــمّ الحـــــــمدِ وللصلاة والســـــــلام أهـــــــــدي

إلى نبـيـّـــــــــــه وأرجـــــــــــو الله في نُجـــحِ ما سُـــئلـــتُـــه شِفاهـــا

مِن نظم سيرة النبيّ الأمجـدِ ألفيّـــــــةً حـــــاويةً للمقـــــــــصدِ

ويقول ابنُ أبي العزّ الحنفي ، في مستهلّ الأرجوزة الميئيّة في ذكر حال أشرف البرية ﷺ ، المختصرة مِن سيرة النبيّ ﷺ :

الحمد لله القـــديم البـــــاري ثمّ صلاتـــــه على المختـــــــارِ

وبعدُ هـــاك سيرةُ الرســـــــولِ منظومةً موجزةَ الفصـــــــولِ

مولـــده في عاشر الفضـــيلِ ربيعٍ الأوّل عـــــــام الفـــــيلِ

ومِن الحديث مِن المنظومات يقول الشيخ حافظ الحكمي في أرجوزته نيل السول :

الحمـــــــد لله المهيمـــــن الأحـــــــدْ باري البرايا الواحد الفرد الصمدْ

ذي العدل والحكمة فيما أبدعهْ كما هو الحـــكيم فيما شـــــــــرعهْ

ويقول ماء العينين الشنقيطي في أرجوزة مسرح الأفكار بسيرة النبيّ المختار :

اللهَ أحمـــدُ وأشكـــــــر عـــــــــــلى إنعامِـــــــه عزّ وجلّ وعـــــلا

ومِن أجلّـــــــــه علينـــــا جعـــــــلُهُ لنا مِن أمّة العديم شكلُهُ

وعلى هذه الأمثلة فقِس منظومات السيرة النبوية ، باستثناء تائية ابن الخطيب واللآلئ .

فناظم اللآلئ اتخذ سبيلاً وسطاً مِن جهة الروي ، أيْ : الحرف الأخير ، فلم يفرد كلّ بيت بروي وقافية كنسج الأراجيز ، ولم يوحّد الحرفَ في كامل منظومته ، وذلك لسببين ، الأول : لاستحالة أو مشقّة اعتماد حرفٍ واحدٍ في أكثر مِن ستمائة بيت ، الثاني : إنْ لم نقُل بالاستحالة ، فمِن عوامل الجذب في النظم أنْ يتغيّر الرويُ ولكنْ ضمن التغيّر المحدود الضيّق لا الكثير المتكرّر ، وذلك بعد عددٍ مِن الفصول والموضوعات ـ مثلاً ـ تنشيطاً للقارئ وتجنباً للمَلال ، فمثلاً يعتمد الشاعر هنا قافية الدال في افتتاح المنظومة بقوله :

هتف الأنام ممجّـداً و محمِّدا و دعاك ربّ العـــــــالمين محمَّدا

يا أيّها المبعوث ذكرُك حسبُه أضحى على مرّ الـــــزمان مخلَّدا

ثم يكمل الاستهلال ، وبعدها يتابع المنظومة بذكر الولادة والرضاع والمعجزات على نفس القافية:

ونشأتَ في بيت المروءة تستقي ما كان أكمل للرجال وأحمَـــــــدا

وضعتكَ آمنـــــــــــة الطـــــهور مبرّءً مِن كلّ نقص في الورى ومؤيَّدا

ويكمل ، ثم يذكر الرحلة الأولى إلى الشام و زواجه ﷺ مِن السيدة خديجة :

شرفت به أرض الشآم برحلةٍ كرمتْ به أرضاً وطابت موردا

أما (بحيرا) حيث شـامَ جمالَه وحديثَه أصـــــــــغى إليه مُـــــردّدا

ثم يكمل ، وهكذا يستمرّ سرد الفصول والموضوعات شِعراً بنفس الرويِ إلى مرحلة عرض النبيّ ﷺ نفسَه على القبائل ، أيْ : ثلاث وثلاثون ومائة بيت على روي حرف الدال ، ثم يبدأ روياً جديداً ، وهكذا في كلّ المنظومة ، ولو حصرنا ذلك في المنظومة سنعدّ سبعة مِن الروي فقط في كل المنظومة ، موزّعة بين فصولها ، لا على التساوي ، فبعد الدال المفتوحة المطلَقة مثلاً بدأ بالراء المفتوحة المطلقة فأتمّ بها ثلاثة وأربعين ومائة بيت ، ثم الميم المفتوحة المطلقة ثمّ الباء المفتوحة المطلقة ثم الباء المفتوحة المطلقة، ثم الفاء المفتوحة المطلقة ، ثم العين المضمومة ، ثم أعاد الراء ولكن مضمومة ، وأعاد الدال ولكن مضمومة أيضاً ، كما أعاد الميم مكسورة ، ثم جاء بروي اللام المضمومة في بعض الأبيات ، واختتم المنظومة بإعادة الباء المفتوحة المطلقة كذكرِها سابقاً .

3 ـ الموضوعات : موضوعات اللآلئ محصورة ما بين ذكر ولادة النبيّ ﷺ حتى وفاته ، ومِن باب الإنصاف فإنه يُنظَر إلى هذا الحصر مقارنةً ببعض المنظومات الأخرى مِن جهتين ، جهة نقصٍ ، و جهة ضبط ، أما جانب النقص : فهو عدمُ ذكره للنسب الشريف الذي اتفق عليه أهل السير ، فبدأ رحمه الله بذكر الولادة ، في حين نرى النسب الشريف حاضراً في "الدرر السنيّة" و "الفتح القريب في سيرة الحبيب" قديماً ، و "نيلِ السؤل" و "تائيةِ الخطيب" و "مسرحِ الأفكار" حديثاً ، وأما جانبُ الضبط : فقد أراد الشاعر أنْ يضبط المنظومة بالسيرة الشريفة التي لا تُعنى بتعريفٍ ولا وصف وإنما تُعنى بذكر ما بين مرحلتي الحياة ، المتمثلَتين بالولادة والوفاة ، وهي رحلة الإنسان في الدنيا ، فكان تجاوز النسب الشريف والبدء بأول ما تُبدأ به حياة الإنسان وهو الولادة ، فتجنّب في ضبطه هذا أيضاً توسُّعَ الشيخ حافظ الحكمي في منظومته (نيل السؤل) مِن ذكرٍ لبدء الخلق وخلق السموات والأرض والملائكة وآدم والأنبياء ...الخ ، مما يخرج المنظومة عن اختصاصها بسيرة النبيّ محمد ﷺ .

4 ـ صورة النظم : الصورة القصصية والتسلسلية كانت بارزة في كلّ الأحداث ، حتى إنّ القارئ لهذه المنظومة يجد نفسه قد خرج مِن قراءة منظوم إلى قراءة أحداثٍ منثورةٍ ، ولكن سُرعان ما ينتبه إلى أنه يقرأ شِعراً عند بلوغه آخر البيت ، فيشعر برنّة وإيقاع القافية ، وهذا التصوير والتسلسل في الأحداث واضحٌ في كل منظومات السيرة المطوّلة ، غير أني أرى أنّ الشاعر هنا تفرّد بهذا المستوى مِن تصوير المشاهد بهذا الإيضاح ، فعلى سبيل المثال ، يذكر الإمام ابن أبي العز الحنفيّ في ميئيتــه بيعة العقبة الأولى والثانية قائلاً :

والبيعة الأولى مع اثني عشرا مِن أهل طيبةٍ كما قد ذُكِرا

وبعد ثنتـــين وخمســـين أتى سبعون في الموسم هذا ثبتــا

بينما يقول صاحب اللآلئ :

حتى رأى مِن خزرج رهطاً أتى يدعـــــوهمُ فهـــــــدى الإلـه ويسّـــــــرا

وبذلك انصرفوا على أمل اللقا في موسمٍ آت ، وكـــــــــــــــان مُقدَّرا

أنْ يدخل الإسلام يثربَ مُعلناً محو الظلام عن العقـــــــــــــول منوّرا

بمضيّ عـــــــــامٍ بيعة أولى زهتْ بـ(عبادة العقبيّ) فيمـــــــــــــا أخبرا

و رفاقـــــــه تعداد أخوة يوسفٍ كانوا الهداة (ومصعب) كان الذُّرا

ثم يذكر العقبة الثانية بذات السرد ، هناك تصوير لمشهد رؤية النبيّ ﷺ رهطاً مِن الخزرج وعرض عليهم رسالته وهداهم الله ، ثم انصرفوا على أنْ يلقوه في العام القادم ... الخ .

وعلى سبيل المثال أيضاً يقول صاحب أرجوزة مسرح الأفكار في بعض ذِكر حجّة الوداع :

سنة عشر حجّة الـــــــوداعِ كانت ، والإسلام طويل الباعِ

ومات إبراهيم فيها ، وقِبَل قبائل اليمن فيها ابنَ جبَـــــل

والأشعريَّ بعث النبـــــــــــيُّ وأســـــــلم ابنُ حـــــــــاتم عَديُّ

فهو يذكر بعض الأحداث ، أما التصوير لمشاهد الأحداث فتراها وتقرأها في اللآلئ إذ يقول هنا:

مـــــا إنْ رســـــولُ الله أذّن أنّـــــــــه في عـــامه هذا لحـــَــجٍّ راحـــلُ

حـــــتى أتى بَشَـــرٌ كثيـــرٌ رغـــــــــبةً بلقـــائه وبفـــعل ما هو فاعلُ

وأهلَّ إمّـــا مفـــــــــرداً أو قـــــــــارناً وكذاك قيل : تمتّـــــعٌ وتراســـلُ

ومضى يعلّمهم مناسك حجّهم فلقـــــاؤه فيـــهم وداعٌ حاصـــلُ

وبملتقى عرفات قـــعّـــــد منهجـــــاً للمسلمين على المدى يتناقلُ

بمواعظٍ ونصائحٍ ، وأجلُّهـــــــــــــا قولٌ بتحريم الدماء ، وقائـلُ :

اليوم أمر الجاهليّـــــــة تحت أقـــ ـــدامي اراه عمـــاهةً تتضاءلُ

يلاحَظ هنا نقلُ المشاهد وتفاصيلُها كما وردتْ في كتب السيرة منثورة ، وقد لا يُلاحظ في باقي المنظومات ، ولقد أكثرَ واعتمد الشاعر في إتقان التصوير الشعريّ على حرفَيْ العطف (الواو) و (الفاء) اللذين يجمعان ويربطان ما بعدهما

بما قبلهما ، ويساعدان في فنّ تصوير المشاهد وتقريبها مِن السرد الحكائي النثري ، وكأنّ الشاعر يسرد موضوعاً أو حدَثاً منثوراً ، فأكثر مِن (الواو) لهذه المهمّة ، وأقلُّ منه (الفاء) ، فمثلاً يذكر حادثة صُلح الحديبية في واحد وعشرين بيتاً ، يفتتح أحد عشر بيتاً منها بـ(الواو) ، وثلاثة بـ(الفاء).

ومِن الصِيغ الداعمة لبلوغ هذا المستوى التصويري (الأفعال الماضية) ، التي تدلُّ على انتهاء وقوع الحدث ، كما تترك ــ في ذات الوقت ــ في الذهن تصوّراً جليّاً للأمر وكأنّه يحدث أمام القارئ وهو يقرأ، فمثلاً يقول في صلح الحديبية:

خـــــرج النبيّ يسوقُ هدياً قاصـــــــــداً بيتاً له ، قلب المتيَّم قد هفـــا

وقد استعان بـ(بِشرٍ) إذ هو مشركٌ عيناً له ليظلّ شـــــــرعاً مُقتفـــى

جمعت قريشُ له الجـــــموعَ تصـــــدّه عن كعبة الدنيا ومروةَ والصفا

و هنا استشار الناس حتى لا يُرى فرداً ويثبِتَ في القيـــادة موقفا

ومضى على اسم الله في أصحابه والمكرمات تعدّدت للمصطفى

يلاحَظ حضورٌ وإحضارٌ للفعل الماضي الذي يفيد الإخبار عن الشيء وسردُه كحكايةٍ متسلسلة الأفكار والأحداث ، إضافة إلى (الواو) الرابطة الذي ذكرنا آنفاً ، فأبياتٌ متتالية استُهِلّت بأفعال ماضية وجُملٍ خبرية لا بدّ أنْ تجلّي لك المشهد أمامك .

بينما يذكرها مثلاً صاحب "نيل السؤل" فيقول :

وخرج الرسول كي يعتمِـــرا في شهر ذي القِعدة مِن غير مِرا

وصـــــــدّه قريشُ بالعـــــدوان وكان فيهـــــــــا بيعـــــــــــــة الرضـــــوان

وكان مِن أسبابها فيما أُثر لمـــّـا النبيْ أرســـــــل عثـــــــمانَ ذُكِرْ

أنّ قريشاً قتـــــــــــــلوه فندَبْ للبيعة الصحبَ فكلٌّ انتـــــــــدَبْ

ثم يتابع الأبيات بذكر ما تمّ الاتفاق عليه في ذلك الصلح ، بجُملٍ إنشائية تخدم ذكر البنود ، فطريقة السرد متقاربة إلى حدٍّ ما ، إلا أنّ فارق التصوير بين النظمين واضح .

التوصيات :

1ـ اعتماد هذه المنظومات متوناً لمادة السيرة النبويّة ، وليس تحيّزاً أقول : إنّ لآلئ البيان مِن أفضل المنظومات التي يمكن اعتمادها لأسباب :

ـــ نظمها الخارج عن المألوف مِن الأراجيز ، كي يتمكّن الإيقاعُ مِن الذائقة الشعرية عند متعلّم السيرة النبويّة ، و ذلك عندما يخرج عن بحر الرجز الذي تعوّد عليه طلاب العلم ، حتى صارت الأراجيز متوناً مسهّلاتٍ لحفظ المواد دون الالتفات إلى القيمة الشعرية فيها ، فقراءة وحفظ منظومةٍ طويلةٍ منسوجة على البحر الكامل ، لا بُدّ إلا أنْ تدع أثراً عروضياً جديداً في ذهن القارئ .

ـــ توسّطها مِن حيث عددُ أبياتها ، فلا هي بلغت ما بلغه منظوم "فتح القريب" و "تائية الخطيب" ولا اختُزلت كـ"ميئيّة ابن أبي العزّ الحنفي" ، فشمولها للسيرة النبوية بأربعة وستمائة بيت لهو أحسنُ نموذج لمتنٍ شعريٍّ .

ـــــ ما تقدم ذكره مِن تصوير المشاهد وسردِها بالطريقة القصصية الحكائية ، وهذا عاملٌ أساسٌ مِن عوامل سهولة حفظها .

فهي إذاً منظومة شعرية غير مطوّلةٍ كالمطوّلات التي تجاوزت الآلاف ، ولا مختصرة كالتي اختزلتْ فلم تشبع المادة ، نُسجت على بحرٍ معتبَر بين البحور ، بطريقة السرد الهيّن والألفاظ السهلة ، وكلّ هذه عوامل تؤهّلها أنْ تُعتمد كمتنٍ في تدريس السيرة النبويّة .

2 ـ باب استيفاء السيرة نظماً مفتوح لكلّ ذي همّة مِن الشعراء ، وكما أنّ نظمها رفعةٌ لقدْر الناظم وفخرٌ يطاول صاحبة الجوزاء ، فهو جسرٌ عبورٍ مختصَرٌ للوصول إلى التمثّل والتخلّق بالصفات والأخلاق المحمّدية .